

"المبرّات مؤسّسات إسلاميّة مرّحّبة"

مداخلة للأب الدكتور سليم دكّاش اليسوعيّ

رئيس جامعة القديّس يوسف

في مؤتمّر المبرّات السنويّ  
يوم الأربعاء في الخامس من شهر أيلول ٢٠١٢

في زمن تتزايد فيه الدعوات للانغلاق على الذات وللاصطفافات الضيقة وفي أيام أصبحت فيها الأرواح البشرية زهيدة الثمن، يأتي عنوان مؤتمركم وكأنه نوع من التحدي، "المبرات مؤسسات إسلامية مرحّبة". إنّه تحدي الذات مع واقع الذات، قبل أيّ أمرٍ آخر، حيث يطرح أهل المبرات السؤال على أنفسهم : كيف نعمل اليوم وغداً ليستمرّ المشروع الذي انطلق منذ اثنين وثلاثين سنة مشروعاً أميناً على مبادئه وأهدافه؟ كيف نعمل على تحقيق هذه الكلمات الأربع والأمانة لها في هذا العنوان : "المبرات مؤسسات إسلامية مرحّبة"؟

### المبرات.....

لا ننسى أنّ المبرّة هي الموضع الذي فيه يصير عمل الخير، وهي عمل الخير بحدّ ذاته، وإنّ البرّ هو من أسماء الله الحسنى عزّ وجلّ، وإنّ البرّ هو المحسن والبرّ المطلق هو الكائن الأسمى الذي منه كلُّ مبرّة وإحسان. روي أنّ موسى عليه السلام لما كلّمه ربّه رأى رجلاً قائماً عند ساق العرش فتعجّب من علوّ مكانه، فقال يا ربّ يمّ بلغ هذا العبد هذا الخلّ فقال : "إنّه كان لا يحسد عبداً من عبادي وكان باراً" (موسوعة مصطلحات الإمام الغزالي، الدكتور رفيق العجم، مكتبة لبنان، ناشرون، ص. ١٣١). والبرّ إسم جامع الطاعات وأعمال الخير المقرّبة من الله فيدعو الله الناس "إلى التعاون على البرّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان" (المائدة ٢) وبالتالي فإنّه يجعل البرّ نقيض الإثم المهلك للإنسان (مصطلحات الإمام فخر الدين الرازي، ص. ١٣٩).

انطلاقاً من هذا المفهوم، أودّ أن أسترجع ما يقوله مؤسس المبرات سماحة العلامة السيّد محمّد حسين فضل الله، إذ يقول : "مؤسسات جمعية المبرات الخيرية لكم جميعاً، هي أمانة الله التي حملناها لنحملها إليكم. قد لا يستطيع أحدكم أن يعطي ولكنّه يستطيع أن يدلّ على العطاء". بمعنى أنّ هذه المبرات تأسست على مبدأ واضح محدّد : هي أمانة من الله عزّ وجلّ وهي أمانة تُقدّم للمستفيدين منها وللمعوزين المنتظرين خيراً وزاداً. كان يقول لي أحد رؤساء جامعة القديس يوسف وقد أصبح في الدار الأخرى الباقية : "إنّ هذه الجامعة ليست ملكاً لنا، إنّها وفقية خير من الله، وبالتالي فمن يمتلكها هو من يعمل فيها ويقنات منها من عمله والتزامه وبالتالي فهو مسؤول عنها وعن رسالتها وعن حاضرها ومستقبلها، من يمتلكها هو من يرسله الله إلينا ليستفيد منها ومن العلم الذي تؤمّنه". ما نقدر على

تأكيده هنا هو أهمية الموقف الروحي الذي هو أساس رسالة المبرّات وذلك ضمن اقتناع ثابت ووضوح في الرؤيا. الموقف الروحي أودّ أنّ أعبر عنه بكلمات هي من ذاتي ومن هويتي المسيحية ومن خصوصيتي الرهبانية اليسوعية في النقاط التالية:

"إذهب إلى حيث هناك حاجات ملحة ؛

إذهب حيث الله يرسلك وبما يضع من خيارات ومن مهارات بين يديك وفي فكرك وفي

قلبك؛

إذهب إلى حيث هناك مجال لمحبة كبرى وللخير الأشمل؛

إذهب إلى الآخر المهتم الضعيف الفاقد القوة التائه؛

إذهب إلى حيث هناك عطش أكبر لكلمة الله؛

إذهب إلى حيث لا يريد الآخرون أن يذهبوا أو يتخلّفون عن الذهاب رغم

النداءات الكثيرة...".

### المبرّات مؤسّسات.....

أعتقد أنّ هذه الأفكار تتقاطع مع الاقتناعات التي كانت في أساس المبرّات من حيث هي مؤسّسات إسلامية مرخبة، فالمبرّات هي مؤسّسات أيّ أنّ لها دستورها وقوانينها وشرعتها وهذه عناصر تحكم مسؤوليّة كلّ شخص في آليّة العمل. وعندما نقول مؤسّسة فذلك يعني أنّ المؤسّسات تبقى في حين أنّ الأشخاص زائلون، فهي تبقى مجرد أبنية أو آليات عمل إذا لم تكن أمينة على دعوتها، بل إنّها تبقى للدوام عبر رسالتها على البرّ والصالح والخير بمقدار ما تكون صادقة في ذلك العمل وفي الالتزام بأهدافها السامية التي تتحدّى الأزمان والأوقات ودورانها. لا شك أنّ هناك نوعًا من المنازعة أو التعارض بين جمود المؤسّسة من ناحية احترام التسلسل الإداري والإجراءات الروتينية وبين إرادة الفرد وعفوية مبادراته التي تسعى إلى خدمة الإنسان والإعلاء من شأنه ومن مستقبله، والتعبير المباشر لمحبه له. الواقع أنّ المبرّات في هذا المجال هي مؤسّسة مبنية على الترحيب على التجدّد وعلى تجديد الأطر والأصول وعلى القبول بمبدأ النقد الذاتي، ولماذا؟ لأن فكر المؤسس هو فكر تجديدي، تجديدي وإصلاحي مستمرّ وكدت أقول فكر ترحيبي وقلب واسع لكلّ جديد يؤتى به لخدمة الإنسان، المبرّات مؤسّسات إسلامية

مرحبة لأن سماحة السيّد محمد حسين فضل الله هو صاحب فكر روحيّ مجدّد ومرحّب بكلّ ما يخدم الإنسان.

أتوقّف عند بعض ما قاله في هذا الخصوص: "الطليعة هي التي تتحمّل المسؤولية في بناء هذا المشروع الاجتماعي الضخم وهو مشروع المبرّات الخيريّة. وعندما تتحرّك الطليعة التي تدير هذا المشروع في مؤسّسات فإنّ مسؤوليّتها أنّ تحدّده بتحديد نفسها في كلّ مرحلة وذلك في عمليّة نقد ذاتي سواء من الناحية الإداريّة، أو من خلال تطبيق الصفات الذاتية في علاقة المدير بالذين يخضعون لإرادته أو لأن هذه المؤسّسات (...). تقوم على عنصر القواعد القانونيّة التي تحكم مسؤوليّة كلّ شخص في آلية العمل". ويتابع المؤسّس قائلاً: "مهنا استطعنا أن نحكّم الجانب القانونيّ في الشؤون الإداريّة فإنّ الإنسان يبقى هو الأساس في طبيعة تمثّله للمسؤوليّة وطبيعة احترامه للإنسان الذي يديره" داعياً إلى احترام إنسانيّة الإنسان أكان رئيساً أو مرؤوساً وأن يتمّ التخلّي عن نظريّة الأعلى والأسفل وعن الحالة الفوقيّة في المواقع التراتبيّة". ويحدّد المؤسّس صفتين لا بدّ أن يتمتّع بهما الرئيس وكلّ إنسان وهما المحبّة والتواضع، إلى جانب احترام القانون في تطبيقه لا كشيء جامد، بل كأمر ضروريّ وحيويّ وكنبوع حياة.

### .....إسلاميّة

ولا نتجاهل أنّ في عنوان مؤتمركم أعطيتم للمبرّات صفة وهي في الواقع ملازمة لها منذ نشأتها هي الصفة الإسلاميّة. وعدا أنّ الواقع اليوميّ والاجتماعيّ يفرض تلك الصفة، فإن سماحة السيّد المؤسّس لم تكن له حراجه في أن يؤكّد تلك الهوية لا بل إنّه كان يفاخر بها حيث يقول: "إننا نعرف أنّ هذه المؤسّسة هي إسلاميّة، وأنّ إسلاميّتها ليست طائفية بمعنى العصبية وبمعنى العشائريّة ولكنها إسلاميّة فكريّة تعطي فكراً إسلامياً وثقافة إسلاميّة تجعل هذا الجيل جيلاً إسلامياً منفتحاً على الإسلام". هذا التصريح يشكّل نقلة نوعيّة في التفكير حيث إنّ منطلق العمل الرسالي ضمن المؤسّسة ومن خلالها يستند لا إلى مجموعة من المبادئ أو الغايات المبهمة بل يستند إلى هويّة صريحة هي هويّة دينيّة وإلى عقيدة هي تمدّد الفرد بالقوّة والطاقة التي هو بحاجة إليها. فهو لا يعمل بقواه البشريّة البعيدة عن الله بل إنّه يعمل بالقوّة التي أودعها الله كلّ فرد ينتمي إلى الأمّة، كما يقول سماحة المؤسّس. في إحدى المقابلات التي كتبها سماحته في مجلّة أضواء العراقيّة منذ ما يقارب الخمسين سنة تحت عنوان "مشاريع دينيّة بلا دين"، وكان فيه رؤيويّاً يقول إنّ المشكلة في مشاريعنا الدينيّة هي أنّها لا تضع الدين في عمق مناهجها وبرامجها وتجارها (مقابلة

في مجلّة البرّ ١/١١/٢٠٠٤، ص. ٢ إلى ٦). والواقع أنّي عندما التقيت بالأستاذ ابراهيم علاء الدين يرافقه الأستاذ وليد حمود لتبادل بعض الأفكار حول هذه المداخلة، قال لي إنّ العنوان أحدث فيه بعض التغيير وقد أضيفت صفة إسلاميّة بعد مؤسّسات، وأنّ ذلك من أدبيّات مؤسّسة المبرّات، قلت في نفسي أنّ ذلك هو طبيعيّ لمؤسّسات تقول عن نفسها إنّها إسلاميّة. إلّا أنّي عندما تبخّرت في فكر سماحة الإمام، وجدت أنّ الأمر ليس من باب الطبيعة بل لا بدّ أن نتناوله من باب الثقافة حيث إنّ التحدّي هو بأن يتمّ التفكير لم هذه المؤسّسات هي إسلاميّة وأنّ نقرأ الإجابة أو لمعة إجابة في فكر السيّد الذي يقول: "لا بدّ للمبرّات أن تفتح على إسلام يفتح على الله وعلى الإنسان وعلى الحياة وعلى الآخرين بالحوار والوقوف على مواقع اللقاء وما إلى ذلك" (البرّ ١٢/١١/٢٠٠٤، ص. ٣). فبالنسبة إلى سماحته لا بدّ من تحريك الفكر الإسلاميّ وتأوينه وتحويله إلى ثقافة التجدّد والحوار والانفتاح وإلى فكر عقيدي معاصر لحاجات الإنسان ورغباته. لأنّ هذا الفكر إن لم يتحرّك يموت كما الشيء الذي لا تحركه يموت، "فالحركة تعطي الحياة للعقل وتنميّه وتطوّره وتجعل هذا العقل مبدعاً" (من جريدة اللواء ١٣/٨/٢٠١٢، خالد اللّحام).

### المبرّات مؤسّسات مرحّبة.....

إذا عدنا إلى اللغة لوجدنا أنّ الفعل الثلاثي "رَحَبَ" يعني اتّسع والفعل الرباعي "رَحَّبَ" معناه الأوّل "وسّع مكانه" والمعنى الثاني هو قابل بالتحية "أهلاً وسهلاً". فالواضح من هذه المعاني أنّكم رحّبتم وترحّبون أيّ وسّعتم المكان لكي تقبلوا اليوم بضيف مختلف عنكم بعض الشيء، بالرغم من وحدة المواطيّة، يحدّثكم عن موضوع يخصّكم فوسّعتم المكان لاستقباله لأنّ عندكم خبرة ثلاثة وثلاثين سنة في توسيع مكانكم وأمكنتكم لاستقبال الناس من ذويّ الحاجات المختلفة. فاستقبلتم في مبرّة الإمام الخوئي وغيرها اليتيم المهتمّش بالإضافة إلى أيتام البصر والنطق والسمع وغيرهم من الضعفاء المهملين. يقول سماحة الإمام محمّد حسين فضل الله عن هذا الخطّ: "إنّه الخطّ الأوّل، هو محاولة إنقاذ الأيتام المسلمين من المتاهات التي يمكن أن يحشروا فيها من خلال بعض حالات التبيّي الخارجي أو من خلال الضياع في الجريمة" (حوار في مجلّة البرّ في ١/١١/٢٠٠٤).

وتوسّعت المبرّات توزّع خير العلم عبر الرعاية التعليميّة على أكثر من (٢٢) اثنين وعشرين ألف طالبٍ عدا المراكز الأخرى الدينيّة والثقافيّة العاملة من أجل خدمة الدين والروح والقيّم. وهذا المبدأ،

الترحيب. بمعنى توسيع المكان ليشمل الأكثر وأيضًا الأبعد والمختلف لا بدّ أن تقوده مسيرة تنوير مؤسّساتيّة تبني القيادات الإداريّة والتربويّة التي تؤمّن استمراريّة عمل المبرّات.

وما يلفت النظر هو تشبّث سماحته العلامة بأنّ صفة الإسلاميّة الملازمة للمبرّات لا تعني الطائفية، يتأسّس على أنّ الإسلام منفتح على الآخرين "ولأنّ الإسلام يريد للإنسان أن يقوم بمسؤوليته في الدائرة التي يعيش فيها". فمبدأ الصفة الإسلاميّة هو ملازم بمبدأ "مرحبة". في هذا الإطار حيث إنّ خطاب جمعيّة المبرّات لكلّ العاملين فيها والمتمنين إليها والمستفيدين من رعايتها وتربيتها وإن كانوا يتربّون على أنّ الإسلام هو خطّهم الحركي الديناميكي في الحياة هو خطاب ترحيبي يدعو في الوقت عينه للانفتاح على الآخر والاعتراف بالآخر على مستوى الحوار وعلى مستوى اللقاء على مواقع اللقاء والحوار في مواقع الخلاف. وهذا ما يشير إليه العلامة، في مختلف لقاءاته: "إنّ جمعيّة المبرّات بكلّ مؤسّساتها ليست جمعيّة طائفية ولا تربّي الإنسان على أساس أن ينغلق على طائفة ولا يفتح على الطوائف الأخرى وعلى الإنسان الآخر أو على الوطن كلّ". يقول أيضًا: "إنّنا نعرف أنّ مجتمعنا الذي يتخرّج منه الموظّفون والمعلّمون والمربّون يحتزن ذهنيّات طائفية ولكننا نحاول أنّ ننأى بالجمعيّة عن ذلك. من الصعب جدًّا أن نجد ملائكة في المجتمع ولكنّ نحاول أن نعطي من خلال أخلاقيّة الإسلام بعض خصائص الملائكة" (حوار صادر في ١١/١/٢٠٠٤).

وأودّ أنّ أركّز على ناحية يشدّد عليها سماحة السيّد بخصوص موضوع الترحيب وربّما ذكرناه بعض الشيء سالفًا: لا مكان لتوسيع المكان والترحيب إذا لم نفهم ماهية الالتزام بقضايا المجتمع ومنها قضايا الإسلام والمسلمين وغير المسلمين وكذلك إن لم نفرّق بين الالتزام وبين التعصّب. وكذلك هناك فرق بين التعصّب وبين التنوّع. فالإسلام، كما يقول، يقبل التنوّع والتودّد إلّا أنّه يرفض التعصّب. فالإسلام كما يقول وهذا يقود إلى اللقاء بالآخر أراد التنوّع البشريّ أن يكون سبيلًا للتعارف الذي يؤدّي إلى الحوار والتعاون وحتّى ربّما إلى الوحدة في جوانب يلتقي عليها الجميع. ولا شكّ أنّ المزيد من العلم والموضوعيّة والانفتاح الثقافي على الآخر من شأنها تعزيز الحوار. ولكن تأسيس هذه الصفة، مرحبة، بوجه صحيح. يقود سماحته إلى القول بأنّ على الاختصاصيين في الرعاية الدينيّة ألاّ يختاروا الأشخاص المعقّدين أو الذين:

(١) لم يجددوا ذواتهم؛

(٢) ولا يملكون الأسلوب المعاصر الذي من شأنه الدخول إلى عقل الطالب والطالبة؛

٣) وعليهم أن يختاروا الأشخاص القادرين على المحاورة وعلى الإجابة على علامات الاستفهام الكثيرة التي تحول في خواطر الجيل الجديد المعترض لشتى أنواع البلبلة الآتية من العولمة.

وإني لأتجاهل أمرًا أساسيًا إذا نسيت ما قام به سماحة السيّد لإعلاء شأن المرأة ودورها في المجتمع حيث تملك الطاقات الروحيّة والعقليّة والحركيّة داعيًا إلى مساواة المرأة في إنسانيتها مع الرجل في كلّ مواقع الإنسانيّة. هذه الفتنة إلى المرأة هي التزام أن تلعب المرأة دورها في المكان الأوسع، في الرّحبة التي هي المبرّة. والواضح أن المرأة أصابت وتصيب النجاح الواسع في الإدارة والرعاية بما عندها من عاطفة موجّهة نحو الطفل والشباب بحيث إنّها تلتزم وتضحّي وتخلص لرسالتها.

### بعض الأفكار الختامية

أنهي حديثي باستقصاءٍ سريعٍ لبعض الغايات والأهداف التربويّة التي يمكن أن يعتمد عليها المرّبي في عمله اليوميّ وفي رسالته التثقيفيّة إستنادًا إلى هذا الكمّ النّوعيّ من الأفكار والآراء والتطلّعات التي بنيتُ عليها مؤسّسة المبرّات :

**أولاً :** من الواضح أنّ تأسيس المدارس والمبرّات لم يأت من رغبة تجاريّة أو من إرادة نفخ للذّات بل أتى من معاني الدّين الأساسيّة حيث أراد المؤسّس أن يبيّن مؤسّسات تعتمد على هذه المعاني طريقيًا وهدفًا لئلاّ تكون هذه المؤسّسات مجرد عمارات بلا دين. وهذا التّأسيس ليس نقطة جامدة في مسار التّاريخ بل هو تأسيس لمعلّم لا بدّ أن يستمرّ برسالته فيتجدّد ليقوى فيكون كالشّاهد الحيّ مع مرور الأيّام.

**ثانيًا :** ما يدعو إليه المؤسّس هو بناء ثقافة جديدة يكون بناء الإنسان هو غايتها فتتكيّف الأساليب والمنهجيات التّربويّة مع هذه الغاية بحيث تكون ملائمة لها لا العكس من ذلك أيّ أن يُفرض على الإنسان التّكيّف مع الأساليب والمنهجيات كما لو أنّها قوالب جامدة لا حركة فيها. الأساليب النّاجحة هي تلك الأساليب الحيويّة المتحرّكة. وهذه الثقافة، كما رأينا، مع صفاتها الثّلاث، تعتمد أولاً وأخيراً على الانفتاح وعلى الحوار وذلك يعني عدم الخوف من استقبال ما هو جديد وما هو ذو معنى للحياة ضمن ثوابت المبرّات الأساسيّة.

**ثالثًا :** وتبقى بعض الأسئلة التي تُطرح على كلّ مشروع له بناءه الفكريّ وأسسها المعنويّة : كيف ندفع بصفة التّرحيب والمرحّب إلى أن تكون شموليّة في قبولها للآخر المختلف في دينه وثقافته الخاصّة؟

أتكون المبرّات فتحًا في هذا المجال؟ وكيف تتجدّد المبرّات وتتكيف مع العصر والعمولة من دون فقدان ماهيّتها وخصوصيّتها، إذ هي مدرسة في التّربية، أراد لها مؤسسها أن تعطي الأفضل والأكرم من أجل بناء الإنسان؟

رابعًا : ويبقى أنّ المبرّات مؤسّسات مرّجبة لا تجبّد طريقها إلى الواقع والحقيقة الاجتماعيّة إلّا عندما يقوم المسؤول الإداريّ والمربّي والأسّاذ ... بدوره التّرحيبيّ في مجال التّعليم والتّربية.

خامسًا : يعطي سماحة العلامة إشارة هامّة إلى المرّبين عندما يدعو إلى تطبيق مبدأ النقد الذاتيّ بمختلف أوجه الحياة والالتزام المهنيّ، إلّا أنّ الهام أيضًا ليس المبدأ بحدّ ذاته بل تربية التلامذة الصحيحة على هذا المبدأ وكيفيّة ممارسته الإيجابيّة.

أختم بهذه الجملة من أحد كبار الكتّاب الفرنسيّين أنطوان دو سانت إكزوبيري حيث قال في كتابه "القلعة":

" إذا كنتَ مختلفًا عنيّ يا أخي فذلك ليس عيبًا أو مصدر ظلم، إنّه مصدر غنى". وأعتقد أنّ المبرّات تسير في هذا النّهج وهي كما يقول أيضًا الكتاب نفسه "تتحرك في الحياة فتولد على مهل" فترى الأمور بعينٍ ساهرةٍ على أبنائها وعلى لبنان بمحمل المكوّنات والجماعات.

بيروت، في ٣٠ آب ٢٠١٢